

سورة ص

هي مكية ، نزلت بعد سورة القمر ، وعدة آياتها ثمان وثمانون
ومناسبتها لما قبلها أنها جاءت كالتممة لها من وجهين :

- (١) إنه ذكر فيها من قصص الأنبياء ما لم يذكر في تلك كداود وسليمان .
(٢) إنه بعد أن حكي فيما قبلها عن الكفار أنهم قالوا : لو أن عندنا ذكرا من
الأولين . لكننا عباد الله المخلصين ؛ وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم — بدأ عز اسمه هذه
السورة بالقرآن ذي الذكر وفصل ما أجمله هناك من كفرهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)
كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَى غُلَّتِ الْأَعْيُنُ وَأَوَّحَى
أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلِ
الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ
امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلِ
هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلَ لَمَا يَنْذُرُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدَهُ مَا هُنَّالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ
الْأَحْزَابِ (١١)

شرح المفردات

الذكر : الشرف كما قال « وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » الذين كفروا هم رؤساء قريش ، فى عزة : أى فى استكبار عن اتباع الحق ومتابعة غيرهم فيه ؛ والعزة أيضا العلية والقهر كما قالوا فى أمثالهم : من « عزيز » أى : من غلب سلب ، شقاق أى مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم : فلان فى شق غير شق صاحبه ، فنادوا أى استغاثوا ، لات : أى ليس الحين ، مناص : أى فرار وهرب ، عجاب أى بالغ فى العجب نحو قولهم طويل وطوال أى إنه من نوابب الدهر فلا حيلة لنا إلا الصبر عليه ، الملة الآخرة هى ملة البصارى ، اختلاق : أى كذب وافتراء ، فليرتقوا : أى فليصعدوا ، فى الأسباب : أى فى الممارج والطرق التى يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش ، قاله مجاهد وقتادة . ومنه قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

جندما : أى جند كثير عظيم كقولهم « لأمر ماجدع قصير أنفه » ، مهزوم أى مغلوب ، الأحزاب : أى المجتمعين لإيذاء محمد وكسر شوكتة وإبطال دينه .

الإيضاح

(ص) تقدم الكلام فى مثل هذا سرارا وقلنا إن هذه حروف يراد بها تنبيه الخاطب للإصغاء إلى ما يراد بعده من الكلام لأهميته نحو ألا ، ويا وينطق باسمائها فيقال (صاد) بالسكون .

(والقرآن ذى الذكر) أى أقسم بالقرآن ذى الشرف والرفعة إنه لمعجز وإن محمدا لصادق فيما يدعيه من النبوة وإنه مرسل من ربه إلى الأسود والأحمر ، وإن كتابه لمنزل من عنده :

ثم بين السبب الحقيقى فى كفرهم فقال :

(بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) أى إنهم ما كفروا به لأنهم لم يجدوا فيه

ما يصلح حالهم في دينهم ولا دنياهم ، بل كذبوا به لاستكبارهم عن اتباع الحق ومشاققتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم وحرصهم على مخالفته .

ثم حذرهم وخوفهم ما أهلك به الأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم فقال :

(كم أهلكنا من قبلهم من قرن فتادوا ، ولات حين مناص) أى وكثير من الأمم

قبلهم أهلكناهم فاستغاثوا حين حل بهم العذاب فلم يعن ذلك عنهم شيئاً ، فقد فات الأوان وحل اليأس ، فليس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب .

ونحو الآية قوله : « فَلَئِمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّةُ » وقوله « حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ » وقوله « فَلَئِمَّا أَحْشَوْا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْتَكِضُونَ . لَاتَرَ كُفُوفًا وَارْجُوفًا رَاجِعِينَ إِلَى مَا كُفَرْتُمْ فِيهِ وَمَسَّا كَيْفًا لَعْنَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ » .

(وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) أى وما كان أشد تعجبهم حين جاءهم بشر مثلهم يدعى النبوة ويدعو إلى الله وليس له من الصفات الباطنة والظاهرة في زعمهم ما يجعله يمتاز عنهم ويختص بهذا المنصب وتلك المنزلة الرفيعة ، ومن ثم قالوا ماهو إلا خداع كذاب فيما ينسبه إلى الله من الأوامر والنواهي . ثم ذكر شبهتهم في إثبات كذبه من وجوه ثلاثة :

(١) (أجعل الآلهة لها واحداً إن هذا لشيء عجاب) أى أزعم أن المعبود إله

واحد لا إله إلا هو ؟ وقد أنكروا ذلك وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، من أجل

أنهم تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم إلى نحو ذلك من

قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا منه وقالوا إن آباءهم على كثيرتهم

ورجاحة عقولهم لا يعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين ويكون محمد وحده محقاصادقا -

ولاشك أن هذا استبعاد فقط ولا مستند له من عقل ولا نقل .

ونحو الآية قوله « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ

النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: « لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا:

إِن ابْنِ أَخِيكَ يَشْتُمُ آلَهُتْنَا وَيَفْعَلُ وَيَقُولُ وَيَقُولُ وَيَقُولُ ، فلو بعثت إليه فتهبته فبعت أبو طالب إليه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل واحد ؛ قال غنشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس ، ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا قرب عمه ، فجلس عند الباب فقال له أبو طالب : أى ابن أخى — ما لقومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟ قال وأكبروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله فقال ياعم : إني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، ففرحوا لكلمته وتقبلوه فقال القوم ما هي وأبيك ، لمنطينكها وعشرا ، قال صلى الله عليه وسلم (لا إله إلا الله) فقاموا فرعين ينفضون أنوابهم ويقولون : « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » فبزل من هذا الموضع إلى قوله : « بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٌ » .

(وانطلق الملائمة أن امشوا واصبروا على آلهتكم) أى وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله وشاهدوا تصلبه في الدين ويتسوا بما كانوا يرجون منه بوساطة عمه ، يتحاورون بما جرى ويقبلون وجوه الرأى فيما يفعلون ويقولون: اثبتوا على عبادتها محتلمين القدح فيها والغص من شأنها والاستهزاء بأمرها . ثم عللوا الأمر بالصبر بما شاهدوه من تصلبه عليه السلام فقالوا:

(إن هذا لشيء يراد) أى إن هذا الأمر عظيم يريد محمد إيمضاه وتنفيذه لأحالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يقال من طرف اللسان ،

أو يرجى فيه المسامحة بشفاعه إنسان ، فاقطعوا أطعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ،
واصبروا على عبادة ألهتكم .

ثم ذكروا أيضا ما ظنوا أن فيه إبطالا لدعواه فقالوا :

(٢) (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة) أى ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد
من التوحيد فى الملة الآخرة وهى ملة النصارى ، فإنهم يقولون بالتثليث ويزعمون أنه
الدين الذى جاء به عيسى عليه السلام وحاشاه ، وإنما خصوا النصرانية لأنها آخر
الأديان المعروفة لديهم من أديان أهل الكتاب .
ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(إن هذا إلا اختلاق) أى ما هذا إلا افتراء وكذب لاحتقيقة له ، وليس له

مستند من دين سماوى ولا من عقل فيما يزعمون .

ثم أخذوا يتكروا اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالوحى وهو مثلهم أو أدون
منهم فى الشرف والرياسة فيما يزعمون فقالوا :

(٣) (أنزل عليه الذكر من بيننا ؟) أى إنه من البعيد أن يختص محمد من

بيننا بإنزال القرآن عليه وفيما ذو الجاه والشرف ، والرياسة والكياسة كما حكى الله

عندهم أن قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ » ثم نبى

عليهم تعرضهم لهذا التفضيل وإعطاء النبوة لمن يريدون فقال : « أَهْمُ يَقْسِمُونَ

رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ لَوْحَن قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ

بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » فهذا منهم دليل على الجهل وقلة العظة .

ثم ذكر أن سبب الاستبعاد هو الشك فى أمر القرآن وميلهم إلى التقليد فقال :

(بل هم فى شك من ذكرى) أى بل هم فى شك من تلك الدلائل التى

لوتأملوا فيها لزال هذا الشك عنهم ، إذ هى دالة بأنفسها على صحة نبوته ، ولكنهم

حين تركوا النظر والاستدلال لم يصلوا إلى الحق فى أمره .

ثم ذكر أن سبب هذا الشك هو الحسد المحجىء النبوة له من بينهم فقال :
(بل لما يذوقوا عذاب) أى إنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه زال عنهم
ما بهم من الحسد والشك حينئذ .

وإخلاصة — إنهم لا يصدقون إلا أن يمنهم العذاب فيضطروا حينئذ إلى
التصديق بذكرى .

ثم أنكر عليهم استبعاد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وطلبهم نبوة غيره من
صناديد قريش فقال :

(أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) أى بل أملكون خزائن رحمة
الله انقهار خلقه ، الكثير المواهب لهم ، المصيب بها مواقعها — فيتصرفوا فيها على
حسب ما يريدون ، ويمنحوها من شاءوا ، ويصرفوها عن لا يحبون ، ويتحكوا
فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم ؟

وإخلاصة — إن أمر النبوة ليس بأيديهم بل بيد الله العليم بكل شيء « الله
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

ونحو الآية قوله : « قُلْ لَوْ أَنَّمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ
خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا » .

ثم ارتقى إلى ما هو أشد في الإنكار ، فأمرهم أمرتهم بارتقاء الأسباب فقال :
(أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرشقوا في الأسباب) أى بل لهم
ملك هذه الأجرام العلية والأجرام السفلية حتى يتكلموا في الشؤون الغيبية ويفكروا
في التدابير الإلهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء ؟ فإن كان الأمر كما يزعمون
فليصعدوا في المعارج ويتوصلوا إلى السموات ، وليدبروا شئونها حتى يظن صدق
دعواهم ، إذ لا سبيل إلى التصرف فيها إلا بذلك .

وإخلاصة — إنه ليس لهم شيء من ذلك ، فلا سبيل لهم إلى توزيع رحمة الله

على حسب ما يريدون ، وإعطاء النبوة لمن يشاءون ، فذلك من شئونه تعالى فهو الذي يفضل من يشاء من عباده على من يشاء . ثم وعد سبحانه نبيه بالنصر والغلبة عليهم فقال :
 (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) أى هؤلاء الذين يقولون هذه المقالة ، ويوزعون رحمة ربك على حسب أهوائهم — جند كثير من الكفار المتحزبين على المؤمنين — مغلوبون في الواقع التي ستكون بينك وبينهم ، وستنتصر عليهم كما حدث في بدر وغيرها ، فأنى لهم تدبير الأمور الغيبية ، والتصرف في الخرائز الربانية . وهذا خير من الله لنبيه وهو بمكة ولم يكن له يومئذ جند — أنه سيهزم جند المشركين ، فجاء تأويله يوم بدر وغيره من المواقع — وهذا من أعظم المعجزات وأدل الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق كتابه وأنه من عند الله لا من عند البشر .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَمَثُودُ
 وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ
 الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْمُورًا
 مِنْ قَوَائِمِ السَّمَوَاتِ (١٥)

المعنى الجملى

لماذا كرر سبحانه أنهم إنما توانوا وتكاسلوا عن النظر والاستدلال لأنهم لم ينزل بهم العذاب — بين في هذه الآيات أن أقوام الأنبياء الماضين كانوا كذلك حتى حاق بهم سوء العذاب . وفى هذا تحذير لأولئك الكافرين الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

ذكر الله تعالى في هذه الآيات ستة أقوام من الذين كذبوا رسوله وما آل إليه أمرهم لتكون ذكركم لأولئك المكذبين من قومه ، فيرعوا عن غيرهم ويثوبوا إلى رشدهم فقال :

(١) (كذبت قبلهم قوم نوح) أى كذب قوم نوح رسوله وقالوا إنه مجنون وهزهوا به ، وكلما ألحف في الدعوة زادوا عتوا وعنادا ، فدعا ربه وقال : « رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَصْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » ولما أصرّوا على تكذيبهم وعنادهم أخذهم الطوفان وهم ظالمون ، ونجى الله نوحا ومن آمن معه كما قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمَّ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُمُورٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِمَنْ كَانَ كُفِرًا » .

(٢) (وعاد) وهم قوم هود وقد كذبوه فأهلكهم الله بريح صرصر عانية كما قال في سورة الحاقة : « فَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا فَاصْتَبَقَتْ سَعْرَهَا . فَسَخَّرْنَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا . فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٌ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » .

(٣) (وفرعون ذو الأوتاد) وقد بعث الله إليه موسى وأيده بآياته التسع فأصرّ على الجحود والعناد وبنى وتيجر وقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر وأغرقه وقومه ونجى موسى وقومه بنى إسرائيل كما قال في سورة يونس : « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقْنَا آيَةً .

وذو الأوتاد : أى ذو الملك الثابت ، وأصله للبيت المطيب بأوتاد وهو لا يثبت بدونها ، ثم استعمل فى إثبات العز والملك كما قال الأسود بن يعفر :

وَأَقْدَعْنَا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

(٤) (ونمود) وقد جاء ذكرهم فى عدة سور أرسل الله إليهم صالحا وكانت الناقة له آية فكذبوه فعقروها فأرسل عليهم صاعقة فأهلكتهم وجعلتهم كهشيم المحظور كما جاء فى سورة القمر : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ . فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَبِّئْهُمْ إِنَّا إِذَا نَفَى ضَلَالٍ وَسُورٍ - إِلَى أَنْ قَالَ - إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ » .

(٥) (وقوم لوط) وقد سبق ذكر قصصهم فى عدة سور من الكتاب الكريم وذكر ما حل بهم من العذاب ؛ فنبأ قوله فى سورة القمر : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّدْرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » .

(٦) (وأصحاب الأيكة) والأيكة : الشجر الملتف بمضه على بعض ، وهم قوم شعيب ؛ وقد ذكر الله قصصهم فى كثير من السور ، فنبأ ما جاء فى سورة الحجر : « وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ . فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ » .

(أولئك الأحزاب) أى هؤلاء الذين تحزبوا على الرسل ، وهم كالأحزاب الذين تحزبوا عليك .

ثم بين سبب انهزامهم وعقابهم فقال :

(إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) أى إن كل هذه الأمم الخالية والقرون الغابرة ، وقد كانوا أشد منهم قوة كذبوا أنبياءهم فحل بهم العذاب ، فكيف بهؤلاء الضعفاء إذا نزل بهم ما لا يقبل لهم به من عذابي .

ثم بين عقاب كفار قريش إثر بيان عقاب أضرابهم فقال :
 (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) ينظر؛ أى ينتظر كقوله تعالى:
 « انظرونا نقتبس من نوركم » وهؤلاء أى كفار مكة ، والفواق : الزمن الذى
 بين الحلبتين ، والصيحة : النفخة الثانية التى بها تقوم الساعة أى ما ينتظر هؤلاء
 الكفار إلا تلك النفخة — بلا توقف مقدار فواق .
 والخلاصة — إذا حل هذا الميقات لا يتأخرون عنه أبدا .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ

شرح المفردات

القط : النصيب والحظ والكتاب بالجوائز والجمع القطوط ، قال الأعشى يمدح
 النعمان بن المنذر :

ولا الملكُ النعمانُ يومَ لقيتهُ يغبطه يُعْطِي القُطُوطَ وَيَأْفِقُ

ويافق : أى يصلح .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا إن القوم إنما تعجبوا لشبهات تتعلق بالتوحيد والنبوت والمعاد ،
 فأشاروا إلى الأولى بقولهم : أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، وإلى الثانية بقولهم : أُنزِلْ
 عَلَيْهِ الدِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، وهنا أشار إلى الثالثة بقوله : وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا
 سخرية وتهكما حين سمعوا بالمعاد ، وأن هناك دارا أخرى يحاسبون فيها ويجازون
 على ما يعملون ، ثم أمر رسوله بالصر على أذى الشركين وعلى كل ما يقولون فى شأنه
 من أنه شاعر وأنه مفتر كذاب .

الإيضاح

(وقالوا ربنا عجل لنا قسطنا قبل يوم الحساب) أى وقالوا استهزاء وسخرية حين سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة — ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى توعدتنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤة الصيحة .

وقائل ذلك على ما روى عن عطاء النضر بن الحرث بن علقمة بن كلاب وهو الذى قال فيه الله تعالى : « سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » أو أوجهل على ما روى عن قتادة ، ورضى بهذه المقالة الباقون ، ومن ثم أسندها إليهم جميعا . ولما بلغ الكفار فى السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا إنه ساحر كذاب ، وقالوا ربنا عجل لنا قسطنا — أمره الله بالصبر على سفاهتهم فقال :

(اصبر على ما يقولون) أى اصبر على ما يقول مشركو قومك لك مما تكره ، فإنما ممتحنوك بالكاره كما امتحننا سائر من أرسلنا من قبلك ، ثم جاعلو الظفر لك على من كذبت وشاقك ، سنتنا فى الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا من قبلك .

قصص داود عليه السلام

وَإِذْ كُرِّهَ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْمَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخَطَابَ (٢٠)

شرح المفردات

الأيد والأد : القوة فى العبادة وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، أواب : أى رجاع إلى الله وإلى طاعته من قولهم أب . إذا رجع ، قال عبيد بن الأبرص :

وكلُّ ذى غيبةٍ يؤوبُ وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ
والإشراق: أى وقت الإشراق؛ يقال أشرقت الشمس أضاءت، وشرقت: طلعت،
محشورة: أى محبوسة فى الهواء، أواب: أى منقاد يسبح تبعاله، شددنا ملسكه:
أى قويناه بالهبة والنصر، والحكمة هى إصابة الصواب فى القول والعمل، الفصل:
الحاجز بين الشيثين، وفصل الخطاب: الكلام الذى يفصل بين الحق والباطل.

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بالصبر على أذى المشركين — أردف ذلك بذكر قصص
بعض الأنبياء الذين حدث لهم من الشاق والأذى مثل ما حدث له فصبروا حتى
فرّج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم — ترغيباً له فى الصبر وإيداناً ببلوغه ما يريد
كما كان ذلك عاقبة من قبله .

الإيضاح

(واذ كر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) أى واذا ذكر لقومك قصة عبدنا داود
ذى القوة فى الطاعة والفة فى الدين، فقد كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر
وورد فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أحب الصلاة إلى الله تعالى
صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان ينام نصف الليل
ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفرّ إذا لاقى، وأنه
كان أواباً» أى رجاعاً إلى الله تعالى فى جميع شئونه، فكان كلما ذكر ذنبه أو خطر
على باله استغفر الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم «إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة
مائة مرة» .

وأخرج البخارى فى تاريخه عن أبي الدرداء قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم
إذا ذكر داود وحدّث عنه قال: كان أعبد البشر» .

وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود» .

ثم عدد سبحانه نعمه عليه فقال :

(١) (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) أى إنه تعالى سخّر الجبال تسبح معه حين إشراق الشمس وآخر النهار . وتسبيحها معه تقديسها لله بحال تليق بها ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر يدل على اختصاصهما بمزيد شرف العبادة فيهما ، فإن لفظة الأزمنة والأمكنة أثرا في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات .
(والطيور محشورة) أى وسخرنا له الطير حال كونها محبوسة في الهواء تسبح بتسبيحه ، فإذا مر به الطير وهو ساجح في الهواء وسمعه يتنم بقراءة الزبور يقف ويسبح معه .

وفى هذا إيماء إلى ما لداود من حسن الترتيل والصوت المتقبل الذى يعجب له الحيوان الأعجم فما بالك بالإنسان ؟ .

ثم أكد ما سلف من تسخيرها له فقال :

(كل له أبواب) أى كل من الجبال والطيور مطيع مرجع إلى أمره يسبح تبعاله .
(٢) (وشددنا ملكه) أى قوينا ملكه بكثرة الجند وبسطة الثراء والهيبة ونفوذ الكلمة والنصر على الأعداء .

(٣) (وآتيناه الحكمة) أى وأعطيناه العلم الكامل والإتقان للعمل ، فهو لا يقدم على عمل إلا إذا عرف موارده ومصادره ، مبادئه وغاياته على نحو ما قال الشاعر :

قدّم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غيرة زكجاً

(٤) (وفصل الخطاب) أى وألهمناه حسن الفصل فى الخصومات بما يستبين به وجه الحق بلا جنف ولا ميل مع الهوى ، وهذا يحتاج إلى فضل كبير فى العلم ، ومزيد فى الحلم ، وتفهم أحوال الخصوم ، ورباطة الجأش ، وعظيم الصبر ، والذكّن الذى لا يتوافر لكثير من الناس .

قضية من قضاياها التي حكم فيها

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيَّ
 دَاوُدَ فَقَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ
 بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي
 لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَاخِي نَعْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَ كَفَلْنَاهَا وَعَزَّيْنِي
 فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا
 مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)
 فَمَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَّآبٍ (٢٥)

شرح المفردات

هل : هنا كلمة يراد منها التعجيب والتشويق إلى سماع ما يرد بعدها ، والخصم :
 جماعة الخصمين ؛ ويستعمل للمفرد والجمع مذكرا ومؤنثا قال الشاعر :

وَحَصْمٌ غَضَابٌ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمْ كَنْفُضَ الْبَرَازِينَ الْعِرَابِ الْمَخَالِيَا

وتسوروا : أى أتوه من أعلى السور ودخلوا إلى المنزل ، والمحراب : الغرفة التي كان
 يتعبد فيها ويشغل بطاعة ربه ، والفرع : انقباض ونفاز يعتري الإنسان من شيء
 مخيف ، بغى : أى جار وظلم ، ولا تشطط : أى لا تبعد عن الحق ولا تجرف في الحكومة ،
 سواء الصراط : أى وسط الطريق ، والنعجة أنثى الضأن ويكنى بها عن المرأة
 كما قال عنتره :

ياشاةُ ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم
فبعثت جاريتي فقلت لها اذهبي فتجسسى أخبارها لي واعلم
قلت رأيت من الأعدى غرة والشاة ممكنة لمن هو مؤتمم

أ كفلنيها : أى ملكنيها؛ وأصل ذلك اجملنى أ كفلها كما أ كفل ماتحت يدي ،
وعزتي : أى غلبنى ، وفى المثل من عز برّ : أى من غلب سلب ، وقال الشاعر :

قطاة عزها شرك فبات تجاذبه وقد علق الجناح

فى الخطاب : أى فى مخاطبته إياى ومحاботه ، إذ قد أنى بمجاح لم أستطع رده ، والخطباء
هم المعارف أو الأعوان ممن بينهم ملاسة شديدة وامتزاج : واحد هم خليط ، فتناء :
أى ابتليناه ، خر : أى سقط ، راكمها : أى ساجدا ؛ وقد يعبر بالركوع عن السجود
قال الشاعر :

غز على وجهه راكماً وتاب إلى الله من كل ذنب

وأناب : أى رجع إلى ربه ، والزانى : القرب من الله ، والمآب : المرجع .

المعنى الجملى

بعد أن مدح سبحانه داود وأثنى عليه بما ساف — أردف ذلك بذكر نبأ عجيب
من أنبائه مشوقاً إليه السامع ومعبأه .

الإيضاح

(وهى أمّاك نبأ الخضم إذ تسوروا الحراب . إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا
لا تخف خصمان بنى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء
الضراط) أى هل علمت ذلك النبأ العجيب ، نبأ الجماعة الذين تسلقوا سور غرفة
داود ودخلوا عليه وهو مشغول بعبادة ربه فى غير وقت جلوسه للحكم ، وحين رآهم

فَرَزَ مِنْهُمْ فُلَانًا مِنْهُمْ جَاءُوا لِأَغْتِيَالِهِ ، إِذْ كَانَ مُنْفَرِدًا فِي مَحْرَابِهِ لِلْعِبَادَةِ ، فَقَالُوا لَهُ :
لَا تَخَفْ مِنَّا ، نَحْنُ اثْنَانِ جَارِ بِمَضْنَا عَلَى بَعْضِ فَاحِكٍ بَيْنَنَا حَكَا عَادِلًا وَلَا تَجْرُ وَاهْدِنَا
إِلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ ، وَلَا نَشْطُطْ فِي الْحُكُومَةِ .
ثُمَّ فَصَلُوا مَوْضِعَ الْخِصُومَةِ فَقَالُوا :

(إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَجْعَةً وَوَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَ كَفَلْتَنِيهَا وَعَزَّنِي
فِي الْخِطَابِ) أَيْ إِنْ أَخِي هَذَا يَمْلِكُ تَسْعًا وَتَسْعِينَ شَاةً وَأَمْلِكُ شَاةً وَاحِدَةً ، فَقَالَ
مَلِكُنِيهَا وَغَلْبَنِي فِي الْحَاجَةِ ، فَجَاءَ بِمَجِيجٍ لَمْ أَطِقْ لَهَا رَدًّا وَلَا دَفْعًا .
ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ حَكْمَ دَاوُدَ فِي الْوَاقِعَةِ فَقَالَ :

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمْتُكَ بِسُؤَالِ نَجْعَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ) أَيْ قَالَ دَاوُدُ بَعْدَ أَنْ أَقْرَأَ الْمُدَّعَى
عَلَيْهِ بِمَا قَالَ الْمُدَّعَى : لَقَدْ ظَلَمْتُكَ بِطَلْبِهِ مِنْكَ إِضَافَةَ نَجْعَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ .
ثُمَّ اسْتَطْرَدَ إِلَى بَيَانِ أَنَّ الظُّلْمَ مِنْ شِيْمَةِ الْإِنْسَانِ فَقَالَ :

(وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَاطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ الْوَالِدِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهِمٌ) أَيْ وَإِنْ كَثِيرًا مِمَّنْ يَتَعَامَلُونَ مَعًا يَجْجُورُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
حِينَ التَّعَامُلِ كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي :

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدَ ذَا عِفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

إِلَّا مَنْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ صَالِحَ الْأَعْمَالِ ، فَإِنَّ نَفُوسَهُمْ
تَعْرِفُ عَنِ الظُّلْمِ وَتَرَعُوى خَشِيَّةً مِنْ خَالِقِهَا ، وَمَا أَقْلُ هَؤُلَاءِ عَدَدًا ، وَأَنْدَرُهُمْ وَجُودًا
كَأَنَّ قَالَ : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّاكِرُونَ » .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ دَاوُدَ كَانَ قَدْ ظَنَّ أَنَّهَا قَدْ جَاءَ لِأَغْتِيَالِهِ ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ غَيْرُ مَا كَانَ
قَدْ ظَنَّ فَقَالَ :

(وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) أَيْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّ
دَخُولَهَا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَمِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَجْلِ أَنْ يَقْتُلُوهُ ،

فلم يقع ما كان قد ظنه فاستغفر ربه من ذلك الظن ؛ إذ لم يقع ما كان قد ظنه فخرّ
ساجداً ورجع إلى ربه طالباً منه المغفرة لما فرط منه .

ثم بين أنه أجاب طلبه وغفر له إنه كان غفورا رحيمًا فقال :
(فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزاني وحسين مآب) أى غفّرنا له ما وقع منه
من ذلك الظن ، وإنه لمن المقر بين لدينا وله حسن المرجع وهو التعميم في الجنة .

هذا خلاصة ما رآه أبو حيان في البحر في تفسير هذا القصص ، وهو حسن .
بيد أنا نرى أن ظن داود في الخصمين وقد دخلا عليه في مثل هذا الوقت ومن غير
الباب لإرادة الاغتيال — ظن له ما يؤيده من الدلائل وشواهد الحال ، فلا يمكن
أن يكون هذا الظن إثمًا حتى يطلب من ربه المغفرة عليه — إلى أن هذه الخصومة
التي ترافعا إليه فيها وطلبا منه الحكومة — ليست من معضلات المشاكل التي
يحتاج فيها إلى حكم داود ، إلى أنه قد كان لهما مندوحة منها بأن ينتظرا إلى اليوم
التالي حتى يجلس للقضاء ولا يضيع عليهما حق إذا هما تأخرا يوما آخر ، لأن هذه
الواقعة إن كانت على الوضع الذي قاله ، فليس فيها ما يدعو إلى المبادرة والتقاضى
في غير موعد القضاء والوصول إلى القاضى على تلك الحال المرئية — فلا بد أنهما
قد كانا يريدان غرضا آخر أخفياه غير ما كان قد ظهر منهما ، ذلك الغرض هو إرادة
الاغتيال ، وما منعهما من تنفيذه إلا يقظة الحراس والخدم والحشم وإحاطته بهما ،
فاخترا سبباً لحجبهما إليه وهو محبيهما للاستفتاء فيما خفي عليهما ، ولأجله تسوّرا
الحراب ، وما يرشد إلى هذه النية المبيتة نية الاغتيال أن تهجم الناس على البيوت
للتقاضى ليس بالمألوف ولا المعروف في أى عصر ، إلى أن هذه الفتوى لاحتجاج إلى
مثل داود ، فهي فتوى جاءت بنت ساعتها لم يفكرا فيها من قبل ، والذي ألجأهما
إليها يقظة الحرس وظنهما أنهما هالكان لا محالة إذا لم يذكر سببا يسوّغ لهما دخول
الصر في ذلك الحين ، وما يؤيد هذا أن اغتيال الأنبياء كان معروفا في بني إسرائيل
فقد قتلوا إسماعيا وزكريا كما يرشد إلى ذلك قوله : « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

وحين علم داود غرضهما وتظاهرت عليه الأدلة هم أن ينتقم منهما ويجازى السيئة بمثلهما « وَجَزَاهُ سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا » ولكنه رأى أن مقام النبوة أمثل به الصفح والعفو كما قال : « كَفَنَ عَقَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » ومن ثم استغفر ربه لما كان قد عزم عليه من الانتقام تأديبا لهما ولأمثالهما .

وما جاء في بعض كتب التفسير أن المراد بالنعاج النساء كما جاء كناية عن ذلك في كلام العرب كما قال * كِنَعَجٍ الْفَلَاتَعَسْتَنَ رَهْلًا * فذلك يتوقف على أن كلمة (نعجة) في اللغة العبرية تستعمل كناية عن المرأة كما هي في العربية ، وتأباه كلمة (الخلطاء) وكذلك ما يقال من أن الخصمين كانوا ملكين فإن (تسوروا) تأباه لأن الملائكة أجسام نورانية لا أجسام كثيفة فلا حاجة إلى التسور ، إلى أن ما جاء من القصص عن ذكر السبب في محيئ الملكين مما يخل بمنصب النبوة ، وفيه نسبة الكثير إلى الأنبياء ، فيجب علينا أن نطرحه؛ إذ يبطل الوثوق بالشرائح — إلى ما فيه من مطعن لأرباب الأديان الأخرى على المسلمين ، إذ نسبوا إلى الأنبياء ما يجل مقامهم عنه ، ويأباه عامة الناس فضلا عن الأنبياء الذين اصطفاهم الله لرسالاته ، ومن ثم أثر عن علي رضي الله عنه أنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين .

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ (٢٦)

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه علينا قصص داود والخصمين — أردف ذلك ببيان أنه فوض إلى داود خلافة الأرض وأوصاه بالحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى

حتى لا يضل عن سبيل الله، ثم ذكر أن من ضل عن سبيله فله شديد العذاب وسوء
المنقلب، إذ قد نسي يوم الحساب والجزاء .

الإيضاح

(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) أى يا داود إنا استخلفناك في الأرض،
وجعلناك نافذ الحكم بين الرعية، لك الملك والسلطان، وعليهم السمع والطاعة،
لا يخالفون لك أمراً، ولا يقيمون في وجهك عصاً .

ثم ذكر ما يستتبع ذلك فقال :

(فاحكم بين الناس بالحق) المنزل من عندى والذي شرعته لما فيه من المصلحة
في الدنيا والآخرة لمبادئ .

ثم أكد ما سلف بالنهى عن ضده فقال :

(ولا تتبع الهوى) فى الحكومة وغيرها من أمور الدين والدنيا .
وفى هذا إرشاد لما يقتضيه منصب النبوة، وتنبيه لمن هو دونه لسلوك هذا
الطريق القويم .

ثم بين سوء عاقبة ذلك فقال :

(فيضلك عن سبيل الله) أى فيكون اتباعك للهوى سبباً فى الضلال عن
الدلائل التى نصبت، والأعلام التى وضعت، للإرشاد إلى سبيل السلام، بإصلاح حال
الاجتمع فى دينه ودنياه، وتمهيد به حتى يسلك طريق الحق بينه وبين ربه، وبينه
وبين الناس .

ثم بين غائلة الضلال ووخامة عاقبته فقال :

(إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) أى
إن الذين يتركون الحق ويضلون عن سبيل معاملة — لهم من الله العذاب الشديد

يوم الحساب لتسيانهم ما فى ذلك اليوم من الأهوال ، وأن الله سيحاسب كل نفس بما كسبت ، فمن دسئ نفسه وملك بها سبيل المعاصى فقد حق عليه العذاب الذى كتبه على العاصين جزاء وفاقا على أعمالهم التى كسبوها بأيديهم .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِطْلَاقٍ ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) .

شرح المفردات

باطلا : أى عبثا ولعبا ، ويل : أى هلاك ، مبارك : أى كثير المنافع الدينية والدينية ، ليدبروا : أى ليتفكروا ، ليتذكروا : أى ليتعظوا ، الألباب : واحدها لب ، وهو العقل ، وقد يجمع على ألْب و يفتك إدغامه فى ضرورة الشعر ، قال الكميت :
إليكم ذوى آلِ النبيّ تطلّعتْ نوازعُ من قلبى ظمأُ وألْبُ

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يضلون عن سبيل الله لهم العذاب الشديد يوم الحساب الظنهم أنه ليس بكائن — أعقب هذا ببيان أن هذا اليوم آت لا ريب فيه ، لأنه سبحانه لم يخلق الخلق عبثا ، بل خلقهم لعبادته وتوحيده ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيعين ويعذب الكافرين ، ثم أردف ذلك ببيان فضل القرآن الذى أنزله على رسوله هاديا للناس ومنقذا لهم من الضلالة إلى الهدى ، وإذا هم تدبروا آياته وانعظوا حقائقها سعدوا فى الدارين ، وبلغوا السماكين ، وكانوا سادة العالم أجمع .

الإيضاح

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) أى وما أوجدنا السماء وما فيها من زينة ومنافع للناس ، والأرض وما فيها من فوائد في ظاهرها وباطنها لهم ، وما بينهما مما يعلمون ومما لا يعلمون — لهوا ولعبا ، بل خلقناها مشتملة على حكم باهرة ، وأسرار بالغة ، ومصالح جمّة ، فقد خلقناها للعمل فيها بطاعتنا والاتباء إلى أمرنا ونهيها ، فإننا لن نترك الناس سدى بل سنعيدهم بعد موتهم إلى حياة أخرى يحاسبون فيها على النقيير والقطمير، والقليل والكثير، ثم يلقون الجزاء على ما كسبت أيديهم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ونحو الآية قوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

ثم بين أن هذا الظن الفاسد قد ظنّه الذين كفروا بالله ووجدوا آياته فقال :

(ذلك ظن الذين كفروا) أى إن الذين كفروا بالله وآياته التي نصبها في الأنفس والآفاق ولم يتدبروا حق التدبر في خلق هذا الكون البديع الدالّ على قدرة خالقه وعظيم تصرفه — أنكروا الحكمة في خلقه وأنه وجد ليكون دليلا على وجود خالقه ، وبرهانا على وحدانيته كما ورد في الحديث القدسي « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف خلقت الخلق في عرفوني » .

ونحو الآية قوله : « أَخْسَبْتُمْ أُمَّةً خَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا وَأَنْتُمْ كُفِرْتُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ »

ثم بين أن لهم سوء المنقلب على بطلان ما اعتقدوا وقبيح ما فعلوا فقال :

(فويل للذين كفروا من النار) أى فيا ويل الكافرين من النار التي أعدت لهم مستقرا ومقاما ، جزاء لهم على ما اجترحوا من الشرك برههم وخالقهم وكفرانهم بنعمه التي أنعم بها عليهم وإنكارهم لليوم الذي تجازى فيه كل نفس بما قدمت من صالح العمل وسيئته « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ثم بين أن مقتضى عدله وحكمته ألا يساوى بين الذين أحسنوا بالحسنى، والذين اجترحوها السيئات ودسّوا أنفسهم بكبير الآثام والذنوب فقال :

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالتجار) أى بل أنجعل من آمنوا بربهم واعتقدوا أنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا شريك له فى ملكه ، وأصلحوا أعمالهم فأدّوا ما يجب للخلق والخالق وأتمروا بما أمر به ربهم على لسان أنبيائه واتبوا عما نهوا عنه ، فلم يدسّوا أنفسهم بفعل شيء من كبائر الآثام خوفاً من يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، ولا تقبل الشفاعة ولا الفداء من أحد « وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » . « يَوْمَ يُفْرَأُ الرِّزَى مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » كمن كفروا به وعاثوا فى الأرض فسادا وهاموا فيها على وجوههم ، لا دين يمنعهم ، ولا زاجر يردعهم ، إذ هم ينكرون الجزاء والحساب والإعادة بعد الموتة الأولى ويقولون : ما هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر . فأنى مثل هؤلاء أن يرعوا عن غي ، أو يكفوا عن معصية ؟ بل هم جهد استطاعتهم يحصلون على اللذات ، ويحترحون السيئات ، بما وسوس إليهم به الشيطان ، أن لا حلال ولا حرام ، ولا جنة ولا نار ، فما هذه إلا أساطير الأولين ، وخزعبلات الموسوسين المترمّتين .

وإذا كان هذا حقا واقتضته الحكمة وأوجبته العدالة ، فلا بد من دار أخرى يجازى فيها المطيع ، ويثاب على ما عمل ، ويعاقب فيها العاصى على ما دنس به نفسه من شرك بربه ، واجتراح للإثم والعصيان ومخالفة أمر الواحد الديان . والمقول السليمة ، والفطر الصحيحة ترشد إلى هذا وتؤيده ، وتدلل عليه وتثبتته ، فإننا نرى الظالم الباغى قد يزداد فى دنياه مالا وولدا ، ويتمتع بصنوف اللذات ، من الدور

والقصور ، والفراش الوثير ، والسكن في الجنات ، ويركب فاره الخيول المطهّمة
 والمراكب الفاخرة ، ويشار إليه بالبنان ؛ بينما ترى المطيع لربه ، المظلوم من بنى جنسه
 قد يعيش عيش الكفاف ، ولا يجد ما يقيم به أوّده ، ويسدّ به مخمصته ، أفيكون
 من حكمة الحكيم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة أن يترك الناس سدى يفعلون
 ما شاءوا بلا حساب ولا عقاب ، أو ينتصف للمظلوم من الظالم ويرجع الحق لصاحبه ؟
 وربما لا يحصل هذا في الدنيا ، فلا بد من دار أخرى يكون فيها العدل والإنصاف ،
 والكيل بالقسط والميزان ، وتلك هي الدار التي وعد بها الرحمن ، على السنة رسله
 الكرام ، صدق ربنا ، وإن وعده الحق ، وإن هذا اليوم آت لا شك فيه ، لتجزى
 كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم .

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس أنه قال : الذين آمنوا على وحرمة وعبيدة
 ابن الحرث رضی الله عنهم ، والمفسدين في الأرض عتبة والوليد بن عتبة وشيبة وهم
 الذين تبارزوا يوم بدر .

ولما كان القرآن هو الذي يرشد إلى مثل هذه المقاصد الشريفة ، والمآخذ
 العقلية الصحيحة قال :

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) أى أنزلنا
 إليك هذا الكتاب النافع للناس المرشد لهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في دينهم
 ودنياهم ، الجامع لوجوه الصالح ليتدبرها أولو الحجا الذين قد أنار الله بصائرهم فاهتدوا
 بهديه ، وسلكوا في أعمالهم ما أرشد إليه ، وتذكروا مواعظه وزواجره ، واعتبروا
 بمن قبلهم فارعوا عن مخالفته حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالغايرين ، ويستأصلهم
 كما استأصل السابقين ممن بغوا في الأرض فسادا .

وما تدبره بحسن تلاوته وجودة ترتيله ، بل بالعمل بما فيه ، واتباع أوامره
 ونواهيه ، ومن ثم قال الحسن البصرى :

قد قرأ القرآن عبيد وصبيان لاعلم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ،

حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر ، في خلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة ، لا أكثر الله في الناس من مثل هؤلاء .

قصص سليمان عليه السلام حين عرض الصافنات الجياد

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ
بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ
رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)

شرح المفردات

الصافن من الخليل : الذى يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرهما
كما قال :

أَلِفَ الصُّفُونُ فَمَا يَزَالُ كَانَهُ بِمَا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا
وقال النابغة :

لَنَا قَبِيَّةٌ مَضْرُوبَةٌ بِفَنَائِمِهَا عِتَاقُ الْمَهَارِيِّ وَالْجِيَادُ الصَّوْفَانِ

والجياد : واحدها جواد ، وهو السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل
قاله المبرد ، والخير هنا : الخليل ، توارت : أى غيبت عن البصر ، طفق : شرع ،
المسح : إمرار اليد على الجسم .

الإيضاح

(ووهبنا لداود سليمان) أى وآتيناه داود ابنا يسمى سليمان .

ونحو الآية قوله : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ » .

ثم مدحه سبحانه وأثنى عليه فقال :

(نعم العبد إنه أواب) أى ما أحقه بالمدح والثناء لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى ربه فى أكثر الأوقات ، وفى كثير من المهمات ، اعتقادا منه بأن كل شيء من الخير لا يتم إلا بإعانتة وتوفيقه .

ثم ذكر حالا من أحواله التى تستحق الإطراء والثناء فقال :

(إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد) أى امدحه حين عرضت عليه الجياد الصافنات من العصر حتى آخر النهار، لينظر إليها ويتعرف أحوالها ومقدار صلاحيتها للقيام بالمهام التى توكل إليها حين الغزو وغيره .

وقد وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين وصفين ممدوحين واقفة وجارية ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقعها ، وإذا جرت كانت سراعا خفيفا فى جريها ، وقيل وصفها بالصفون لأنه لا يكون فى الهجن ، بل يكون فى العراب الخالص .

(فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) قد يحب الإنسان شيئا وهو يتمنى ألا يحبه ، كالمريض الذى يشتهي ما يزيد مرضه ، والوالد الذى يحب ولده السىء السيرة والخلق ، وقد يحب شيئا وهو يرى أن من المصلحة أن يحبه ، ومن الخير أن يزداد شغفه به ، وتلك هى غاية المحبة ، فسليمان عليه السلام يقول : إني أحب حبي لهذه الخيل ، وتلك المحبة إنما حصلت عن ذكر ربي وأمره لا عن الشهوة والهوى . (حتى توارت بالحجاب) أى حتى غابت عنى بسبب العثير المتطاير من سناجكها كما قال المتنبي :

أثارت سناجكها عليها عثيرا لو تبتغى عتقا عليه لأمكننا

فليراد أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة « إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَلِيرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » وما زال يرددها حتى غابت عن عينيه بسبب الغبار من جهة ، ولبعد المسافة من جهة أخرى .

وبعد أن اطمأن إلى حالها ، وحمد جميل أمرها قال :

(ردوها على) فقد كفى ما قامت به من حُضْر دلت به على نجابتها وفراحتها ، وأنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملمات ، وفيها الكفاية وفوق الكفاية حين حلول الأزمت ، من غزو وغيره .

ولما ارتاح إليها وسرّ بما بذلته من جهد ، وما ينتظر منها إذا جد الجد — أظهر استحسانه لها ولفرسانها .

(فطفق مسعجا بالسوق والأعناق) أى فجعل يسمح سوقها وأعناقها إظهارا لكرامتها لديه ، إذ هي أعظم الأعوان ، فى دفع العدوان ، ولا سيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها وأنها خلو من الأمراض التي قد تعوقها عن عملها حين البأساء . والخلاصة — إن سليمان احتياطا للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التي تتكون منها قوة الفرسان ، فجلس وأمر بإحضارها وإجرائها أمامه ، وقال إني ما أحببتها للدينا ولذاتها ، وإنما أحببتها لأمر الله وتقوية دينه ، حتى إذا ما أجزيت وغابت عن بصره ، أمر راكضها بأن يردوها إليه ، فلما عادت طفق يسمح سوقها وأعناقها سرورا بها وامتحانا لأجزاء أجسامها ، ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى فتكون سببا فى عدم أدائها مهمتها على الوجه المرضي .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ (٣٧) وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨)
هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى
وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) .

شرح المفردات

فَتِنَا سليمان : أى ابتليناه بمرض ، جسدا : أى جسما ضعيفا كأنه جسد بلا روح ،
أناب : أى رجع إلى صحته ، لا يبغي لأحد من يمدى : أى لا ينتقل منى إلى غيره ،
رخاء : أى لينه ، أصاب : أى قصد وأراد ، فقد حكى الزجاج عن العرب أنها تقول :
أصاب الصواب فأخطأ الجواب ، قال الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفضل

مقرنين : أى مربوطين ، والأصفاد : واحدها صفة (بالتحريك) وهو العُل الذي
يجمع اليدين إلى العنق ، قال عمرو بن كلثوم :

فأبوا بالتهاب وبالسبايا وأبنا بالملك مصدينا

والزلفى : الكرامة ، والمآب : المرجع .

الإيضاح

(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) أى ولقد ابتلينا سليمان
بمرض عضال صار بسببه ملقى على كرسيه لشدة وطأته عليه (والعرب تقول
في الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح) ثم رجع بعد إلى حاله الأولى
واستقامت له الأمور كما كان .

(قال رب اغفرلى) طلب المغفرة من ربه ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى
فاحتاج إلى طلب المغفرة من ربه ، كما قالوا: حسنت الأبرار سيئات القربين ، ولأن

هذا في مقام التذلل والخضوع كما قال عليه السلام « إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » . وما روى من قصص الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن في بيت سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود دسوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون . ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضی الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين ، وكلها مثليقة من قصص أهل الكتاب اه .

(وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) أى هب لي ملكا لا يكون لأحد غيري لعظمه .

قال صاحب الكشف : كان سليمان عليه السلام ناشئا في بيت الملك والنبوة وازتالها ، فأراد أن يطلب من ربه عز وجل معجزة فطلب على حسب إنفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلا على نبوته ، قاهرا للمبعوث إليهم ، وإن تكون معجزة حتى تحرق العادة ، فذلك معنى قوله : لا ينبغي لأحد من بعدي اه .

وقيل إنه أراد بقوله : لا ينبغي لأحد من بعدي — الدلالة على عظمه وسعته كما تقول : لفلان ماليس لأحد من الفضل والمال . وربما كان للناس أمثال ذلك ، ولكنك تريد تعظيم ما عنده .

ثم علل المفردة والهبة معا فقال :

(إنك أنت الوهاب) أى إنك أنت الكثير المواهب والعتاء ، فأجب طلبى ، وحقق رجائى .

ثم أخبر سبحانه بأنه أجاب دعاءه ووقفه لتحصيل ما أراد وعدّد نعمه عليه فقال :

(١) فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) أى فذللتنا لطاعته إجابة للدعوتة الريح تجري ليثة طيعة له لا تمتنع عليه إلى أى جهة قصد .

ولا تنافى بين وصف الريح هنا بالرخاء، ووصفها في آية أخرى بكونها عاصفة كما قال: «وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً» لأنها تكون بكلتا الحالين على حسب الحاجة إليها، فهي تشتد حين الحل، وتلين حين السير.

(٢) (والشياطين كل بناء وغواص) أى وذلكنا لأمره البنائين من الشياطين والغواصين فى البحار منهم ، يسخرهم فيما يريد من الأعمال ، فإذا أراد بناء العماير والقصور أو الحصون والقناطر أنجزها له فى الزمن القصير ، وإذا أحب استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار جعلهما حلية لمن فى قصوره لبوا طلبه سريعا .

(٣) (وآخرين مقرنين فى الأصفاد) أى وآخرين من الشياطين مرده مشاكسين لا يلبون دعوة الداعى ، ويخالفون ما أمروا به فيوضعون فى السلاسل والأغلال ليتقى شرهم .

وخلاصة ما سلف — إن سليمان قد استعمل الشياطين فى الأعمال الشاقة كالبناء والغوص فى الناء ، ومن لم يطع أمره وضعه فى السلاسل والأغلال ، كفا لشره ، وعقابا له ، وعبرة لغيره .

وإنا لانعلم حقيقة تلك القيود ولا كيف تكون العقوبة ؛ كما لانعلم كيف يشتغل الشياطين وكيف يبنون أو يفوضون ؟ فكل ذلك فى عالم لاندرك شيئا من أحواله ، فعلىنا أن نؤمن بأن سليمان لعظم ملكه لم يكتف بتسخير الإنس فى أعماله بل سخر معهم الجن فيما يصعب عليهم ، وتتقبل هذا كما قصه القرآن دون دخول فى التفاصيل خوفا من الزلل الذى لاتؤمن مغيبته ، ولانصل أخيرا إلى معرفة الحق فيه ، وانكتف بذلك ، فالمعبرة به ماثلة ولا تنزىد فيه .

ثم ذكر سبحانه أنه أباح له أن يتصرف فى كل هذا الملك الواسع كما شاء دون رقيب ولا حسيب فقال :

(هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أى وقتلناه : إن هذا الذى أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة فى الفنى والتسليط على عالم لم يسلط عليه غيرك من

العوالم الأخرى — عطاؤنا الخالص بك ، فأعط من شئت ، وامنع من شئت غير
 محاسب على شيء من ذلك ، فقد فوضنا لك التصرف فيه كما تشاء
 وبعد أن ذكر ما أوتيته من نعم الدنيا التي يحار في إدراكها العقل ، أبان ماله
 في الآخرة عند ربه من مقام كريم وجنت ونعيم فقال :

(وإن له عندنا لزلقى وحسن مآب) أى وإن له في الآخرة لقربي وكرامة لدينا
 فنبوته جنت النعيم ، ونوته الإجلال والتعظيم ، فهو كما كان سعيدا في الدنيا يكون
 سعيدا في الآخرة ويفوز برضاه وعظيم كرامته . جعلنا الله ممن كتبت له السعادة
 في الدارين ، والكرامة والثوبة لديه في جنت النعيم .

قصص أيوب عليه السلام

وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ
 وَعَذَابٍ (٤١) أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا
 لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ
 بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ
 أَوَّابٌ (٤٤)

شرح المفردات

أيوب : هو أيوب بن أموص بن أروم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، فهو
 من بني إسرائيل قاله ابن جرير . والنُّصْبُ : (بضم فسكون) والنَّصْبُ (بفتحين)
 كالرشد والرشد : المشقة والتعب ، عذاب : أى ألم مضر كما جاء في قوله : «أَنِّي مَسَّنِيَ
 الْعَصْرُ» اركض برجلك : أى اصرب بها على الأرض ، مغتسل : أى ماء تغسل به

وتشرب منه ، والضعف : الحزمة الصغيرة من الكلال والزيجان ، ويقال حنث في يمينه : إذا لم يفعل ما حلف عليه .

الإيضاح

(واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) أى واذكر لقومك صبر أيوب حين نادى ربه وقال : رب إنى أصبت بالمرض ، وتفرق الأهل وضياع الولد .

ومن حديث مس الشيطان له ماروى — إن الشيطان وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله وولده ووافر صحته ، فأبتلاه الله بالأمراض والأسقام ، وأضاع ماله وتفرق ولده فى أنحاء البلاد ، وهلك منهم من هلك ؛ فصبر على ما أصابه من أذى وناله من ألم ممرض ، وحسرة تقطع نياط القلب .

ولا نعلم على وجه التحقيق قدر الزمن الذى لحقه فيه الضر ولا نوع هذا الضر إذ القرآن لم يصرح بهذا ، ولكننا نعلم على وجه لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفر الناس منه ويمتنعهم من لقائه والجلوس معه ، لأن ذلك شرط من شروط النبوة ؛ كما أننا نعلم من وصف الدواء الآتى الذى أوحى الله به إليه أنه من الأمراض الجلدية التى تشفيها المياه المعدنية أو الكبريتية كما أشار إلى ذلك بقوله واصفا له الدواء :

(اركض برجلك هذا مفتسل بارد وشراب) أى حرك الأرض برجلك واضربها بها يخرج ينبوع من الماء تفتسل منه وتشرب منه فتبرأ مما أنت فيه من المرض .

وفى هذا إيماء إلى نوع المرض الذى كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالإكزيما والحكة ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء لكنه ليس بقتال ، وكما تقدم الطب أمكن الطبيب أن بين نوع هذا المرض على وجه التقريب لا على وجه التحديد — كما أن فى ذلك إيماء إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجمة فى تلك الأمراض ، وهى كما تفيد بالاستعمال الظاهرى ، تفيد

بالشرب أيضا كما ترى في العميون التي في البلاد التي أنشئت فيها الحمامات في أوروبا
ومصر وغيرها ، واستعملت مشاقق ومصحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية
كياه فيشى وسويسرا وحلوان .

وقد أراد بس الشيطان إياه بالنصب والعذاب — ما كان يوسوس به إليه
في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع ،
فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه وردة بالصبر الجميل .
وعن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن نبي الله
أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد لإرجلين
كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم
والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه وما ذاك ؟ قال
منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل
حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ، غير أن الله عز وجل يعلم أنى
كنت أسرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتى فأكفر
عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا فى حق » .

ولا شك أن هذا الحديث من أخبار الآحاد التي تصادم أسس الدين الصحيحة
من أن الأنبياء يجب ألا يكون فيهم من الأمراض ما ينفّر الناس منهم ، لأن وظيفة
تبليغ ما أرسلوا به إليهم ، وكيف يجتمع الناس بهم ويتحدثون إليهم وهم فى تلك
الحال وهذا البلاء ، ومن ثم فنحن نقف أمام هذه الأخبار موقف الحذر والاحتياط
فى قبولها أو القطع بعدم صحتها لخالفها لقطعى لاشك فيه .

وكا دفع عنه سبحانه الضر إجابة لدعائه ، أجب دعاءه فى أهله وولده فقال :

(ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) أى
وجعنا له أهله بعد التفرق والتشتت وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا

عليه ، رحمة منا وتذكرة لأولى العقول السليمة ، لنتبر ونعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مع العسر يسرا ، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة :

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

ولم يذكر لنا الكتاب الكريم ما ذا كان حاله في ماله ، فتمسك عن الكلام كما أمسك .

ثم ذكر أنه رخص له سبحانه في تحلة يمينه فقال :

(وخذ بيدك ضعفا فاضرب به ولا تحنث) أى وخذ حزمة صغيرة من ريحان أو كلاً فاضرب بها ، فيكون ذلك تحلة ليمينك التى حلفتها ، والكتاب لم يبين لنا علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ ويذكر الرواة أنه حلف على زوجه رحمة بنت إفرائيم ، وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربها إن برئ مائة ضربة ، فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البر في يمينه رحمة به وبها ، لحسن خدمتها له وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه .

وفي هذا مخرج وفرج لمن اتقى الله وأتاب إليه ؛ ولهذا قال عز اسمه :

(إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب) أى إنا وجدنا أيوب صابرا على ما أصابه في النفس والأهل والمال من أذى غزازيفاه بما فرّج كربته ، وأذهب لوعته وليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر وليس فيه شيء من الجزع ، فهو كتمنى العافية وطلب الشفاء .

وقد روى أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت ؛ وكان يقول في مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم آكل إلا وسمى يتيم ، ولم أبت شعبان ولا كاسيا ومعى جانع أو عريان .

قصة إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، وإسماعيل ، واليسع
وذى الكفل

وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاكُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا
لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ ، وَالْيَسَعَ ، وَذَا الْكُفْلِ
وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ ،

شرح المفردات

الأيدي : أى القوى فى طاعة الله ، والأبصار : واحداها بصر ؛ ويراد به هنا
البصيرة والفقہ فى الدين ومعرفة أسرارہ ، أخلصناهم : أى جعلناهم خالصين لنا ،
بخالصة : أى بخالصة خالصة لا شوب فيها ، هى تذكر الدار الآخرة والعمل لها ،
المصطفين : أى المختارين من أبناء جنسهم ، والأخيار : واحدهم خير وهو المطبوع
على فعل الخير ، هذا ذكر : أى هذا المذكور من الآيات فصل من الذكر وهو القرآن .

الإيضاح

(واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار) أى واذكر
صبر عبادنا الذين شرفناهم بطاعتنا ، وقويناهم على العمل لما يرضينا ، وآتيناهم البصيرة
فى الدين ، والفقہ فى أسرارہ والعمل النافع فيه .

ثم علل ما وصفهم به من قاضل الصفات وجليل المدح بقوله :

(إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) أى إنا جعلناهم خالصين لطاعتنا ، عاملين
بأوامرنا ونواهيها ، لانصافهم بخالصة جليلة الشأن لا يساويها غيرها من الخصال ، وهى

تذكركم الدار الآخرة ، فهي مطمح أنظارهم ومطرح أفكارهم في كل ما يأتون وما يذرون ، ليفوزوا ببقاء ربهم ، وينالوا رضوانه في جنات النعيم .

(وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ) أي وإِنَّهُمْ لَمِنَ الْمُخْتَارِينَ الَّذِينَ جَبَلَتْ نَفْسُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ ، فَلَا تَطْمَحُ إِلَى الْأَذَى وَلَا تَمِيلُ إِلَى التَّبَاغُضِ وَالتَّحَاسُدِ ، وَلَا تَرْتَكِبُ الشَّرَّ وَالْآثَامَ .

(وَإِذْ ذَكَرْنَا لِإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ) أي وَإِذْ ذَكَرْنَا لِقَوْمِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ تَحْمَلُوا الشَّدَائِدَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا شَرْحَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ ، وَأَوْصَافَ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَتِي الْأَنْعَامِ وَالْأَنْبِيَاءِ .

(وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ) أي وَكُلٌّ مِنْهُمْ مِمَّنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ لِلنَّبُوءَةِ ، وَاصْطَفَاهُ مِنْ خَلْقِهِ .

(هذا ذكر) أي هذه الآيات الناطقة بمحاسنهم شرف لهم يذكر بين الناس ، وهذا أسلوب يذكر للانتقال من كلام إلى آخر ؛ كما يقول الجاحظ في كتبه : فهذا باب ثم يشرع في باب آخر ، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر : هذا وكان كيت وكيت — وعلى هذا جاء قوله : « هَذَا وَإِنَّ لِلطَّائِفِينَ لَشَرًّا مَاءً » كما سيأتي بعد .

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنٍ مَاءً (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَّةٍ لَهُمْ فِيهَا الْأَنْهَارُ
 (٥٠) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِقَاءٍ كَثِيرَةٍ شَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرْزُقْنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)

شرح المفردات

الطاغى : المتجاوز للحد في ترك الأوامر وفعل النواهي ، جنات عدن : أى جنات استقرار وثبات ، من قولهم : عدن بالمكان أى أقام به ، متكئين فيها : أى متكئين فيها على الأرائك كما جاء في الآية الأخرى ، آتراب : أى لدات متساوون في السن حتى لا تحصل التيرة بينهم ، نفاذ : أى اقطاع .

المعنى الجملى

لما حكي عن كفار قريش سفاهتهم على النبي صلى الله عليه وسلم فوصفوه بأنه سناخر كذاب ، وقالوا استهزاء : ربنا عجل لنا قطنًا - أمره بالصبر على أذاهم لوجهين : (١) إن المتقين من الأنبياء قبله صبروا على كثير من المكاره فعليه أن يقتدى بهم ويجعلهم أسوة له .

(٢) ما ذكره في هذه الآيات والتي بعدها من أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك مما يوجب الصبر على الأذى حين تبليغ الرسالة وعلى ما يلاقيه من المكاره .

الإيضاح

(وإن للمتقين لحسن مآب) أى وإن الله أعطى المتقين الذكر الحسن في الدنيا ، ولهم في الآخرة حسن المرجع .

ثم بين هذا المآب الحسن بقوله :

(جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) أى هو جنات استقرار وإقامة ، أبوابها فُتِّحَتْ إكراماً لهم ، وفي هذا إيماء إلى وصفها بالسعة وقررة العيون فيها ومشاهدة أحوالها التي تسر الناظرين ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على مقدار أمنهم فيها وتعمهم بنعيمها فقال :
 (متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب) أى يدعون فيها بألوان
 كثيرة من الفاكهة والشراب وهم متكئون على الأرائك ، وإنما خص الشراب
 والفاكهة من بين ما ينعم به فيها ، لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والأشربة ؛ فالنفس
 إليها أشوق ، وفي ذكرها أرغب ، كما أن فى ذلك إيحاء إلى أن مطاعهم لمحض
 التفكه والتلذذ دون التغذى لأنه إنما يكون لتحصيل بدل المتحلل ، ولا تحلل فيها .

وبعد أن وصف المسكن والمأكول والمشروب وصف الأزواج فقال :
 (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) أى وعندهم نساء ذوات خفر قصرن
 طرفهن على أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ، وهن متساويات فى السن
 والجمال يحب بعضهن بعضا ، وفى ذلك راحة عظيمة للأزواج ، إذ فى تباغض الضرائر
 النصب والتعب والهم الكثير للزوج ولهن .

(هذا ما توعدون ليوم الحساب) أى هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هو
 ما وعد الله به عباده المتقين ، يصيرون إليه بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم .
 ثم أخبر بأن نعيم الجنة دائم لا يزول ولا ينقطع فقال :

(إن هذا الرزقنا ماله من نفاد) أى إن هذا النعيم وتلك الكرامة — لعطاء
 دائم غير مجذوذ ولا منقطع .

ونحو الآية قوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » وقوله : « عَطَاءٌ
 غَيْرَ مُجْدُوزٍ » أى مقطوع ، وقوله : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى منقطع . وقوله :
 « أَكُلُوا دَائِمًا وَظَلِمَا » .

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرًّا مَّابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنِسْفًا الْمِهَادُ (٥٦)
 هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٍ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا

فَوَجَّ مُتَّخِجِمٌ مَعَكُمْ لَامِرٌ حَبَابًا بِهِمْ . إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ
لَامِرٌ حَبَابًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ
لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَانْتَرَى رِجَالًا كُنَّا
نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَخَذْنَاَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣)
إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

شرح المفردات

الطاغين : هم الكفار الذين تجاوزوا حدود الله وكذبوا رسله ، يصلونها : أى
يدخلونها ويقاسون حرها ، والمهاد : كالفرش لفظا ومعنى ، والحميم : الماء الشديد
الحرارة ، والفساق : شديد البرودة يغسق من صديد أهل النار ، يقال غسقت العين :
أى سال دمعها ، من شكله : أى من مثل المذوق فى الشدة والفظاعة ، أزواج : أى
أجناس ، فوج : أى جمع كثير من أتباعكم فى الضلال ، والافتحام : ركوب الشدة
والدخول فيها ، لامر حبا بهم قال أبو عبيدة : العرب تقول لامر حبا بك : أى لارحبت
عليك الأرض ولا اتسعت ، من الأشرار : أى الأراذل الذين لا خير فيهم ، يريدون
بذلك المؤمنين ، زاغت عنهم : أى مالت عنهم ، والتخاصم : خصامة بعضهم بعضا
ومدافعة كل منهم الآخر .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه ثواب المتقين — أردفه بوصف عقاب الطاغين ، ليكون
ذلك متممًا له ، فيأتى الوعيد عقب الوعد ، والترهيب إثر الترغيب ، فيكون المرء بين
رجاء فى الثواب وخوف من العقاب ، فيزداد فى الطاعة وينأى عن المعصية ،

وتلك وسيلة التهذيب والتأديب التي ترقى بها النفوس إلى سبيل الكمال في دنياها وآخرتها .

الإيضاح

(هذا) أى هذا الذى تقدم ما يكون جزاء للمؤمنين كفاء ما قدموا من أعمال صالحة .

(وإن للطاغين لشر مآب) أى وإن للكافرين الخارجين عن طاعة الله المكذبين لرسله سوء المنقلب وشر العاقبة ، ثم فسر ذلك بقوله :

(جهنم يصلونها فبئس المهاد) أى فهم يدخلون جهنم ويقاسون شديد حرها ، فبئس مهادا وفراداهى ؛ ونحو الآية قوله : « لَّهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » . ثم أمرهم أمر تهكم وسخرية بذوق هذا العذاب فقال :

(هذا فليذوقوه) أى العذاب هذا ، فليذوقوه .

ثم فصل أنواعه وبين ألوانه فقال :

(حميم وغساق) أى لهم فيها ماء حار يشوى الوجوه ، وماء بارد لا يستطيع شربه لبرودته ، قال الحسن رضى الله عنه : الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى ، إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابا فى قوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة .

ثم زاد فى التهديد وبالغ فى الوعيد فقال :

(وآخر من شكله أزواج) أى ليس الأمر مقصورا على هذا فحسب ، بل لهم فيها أشباه وأمثال من مثله فظاعة وشدة كالزقوم والضعود والسموم .

وبعد أن وصف مساكنهم ومشاربهم حكى ما يتناجون به ويقولوه بعضهم لبعض . (هذا فوج مقتحم معكم لامرحبا بهم) أى هم يتلاعنون ويتكاذبون ، فتقول

الطائفة التى تدخل قبل الأخرى حين تقبل التى بعدها مع الخزنة والزبانية : هذا جمع كثير داخل معكم فلا مرحبا بهم .

قال ابن عباس فى تفسير الآية : إن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بهم الأتباع تقول الخزنة للقادة: هذا فوج داخل النار معكم ، فيقول السادة : لا مرحبا بهم ، والمراد بذلك الدعاء عليهم ، قال النابغة :

لامرحبا بغير ولا أهلا به إن كان تفريق الأحيّة فى غد

ثم علل استيجاب الدعاء عليهم بقوله :

(إنهم صالوا النار) أى إنهم ذائقو حر النار مثلكم .

وهذا كلام من المتبوعين والرؤساء الذين أغروهم وأدخلوهم فى الكفر ، وحينئذ ردّ عليهم الداخلون من الأتباع ويقولون لهم :

(بل أتم لامرحبا بكم أتم قدمتموه لنا فبئس القرار) أى قال الأتباع وهم الفوج المتتحم للنار لأولئك الرؤساء : بل أتم أحق منا بما قلتم (لامرحبا بكم) فإنكم أغويتونا ودعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، وبئس النار المنزل والمستقر .

وهذا كلام يراد به التشفى منهم ، لأنه مشترك بينهم .

ونحو الآية قوله : « كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا » .

ثم ذكر مقالة أخرى للأتباع ذمّا لهم أيضا فقال :

(قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار) أى قال الأتباع دعاء على رؤساء الضلال : ربنا آت من قدم لنا هذا العذاب - عذابا مضاعفا فى النار ، عذابا للضلال وعذابا للإضلال كما ورد فى الحديث « من سن سنة سيئة فعلية وزرّها ووزر من عمل بها » .

ونحو الآية قوله : « رَبَّنَا هُوَ ذَاكَ أَضَلُّونَا فَأَتَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ » وقوله :

« رَبَّنَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنَا كَبِيرَا » .

وبعد أن ذكر حديثهم عن أصحابهم في الدنيا حكى حديثهم عن أعدائهم فيها فقال:
(وقالوا ما لنا لا نرى رجلا كنا نعدم من الأشرار؟) أى قال المشركون بعضهم
لبعض على سبيل التعجب والتحسر إذا افتقدوا المؤمنين ولم يجدوهم في النار : ما بالنا
لا نرى رجلا كنا نعدم في الدنيا أشرارا لاخير فيهم ؟

قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول أبو جهل :
أين بلال ، أين صُهَيْب ، أين عمار ، أولئك في الفردوس . وأعجبا لأبي جهل !
مسكين ، أسلم ابنه عكرمة وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو . قال :
ونورا أضياء الأرض شرقا ومغربا وموضع رجلى منه أسودٌ مُظلمٌ
ثم سألوا عن السبب في عدم رؤيتهم فقالوا :

(أخذناهم سخرى أم زاغت عنهم الأبصار؟) أى لأجل أنا قد اتخذناهم سخرى
ولم يكونوا كذلك لم يدخلوا النار ، أم هم معنا ولكن لم تقع عليهم أبصارنا ؟
وفى هذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها على استسخارهم منهم في الدنيا .
والمخلاصة — إن الكفار حين دخلوا النار ونظروا في جوانبها لم يروا المؤمنين
الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا فتناجوا وقالوا : ما بالنا لا نرى الذين كنا نتخذهم
في الدنيا سخرى ؟ ألم يدخلوا النار معنا ، أم دخلوها ولكن زاغت عنهم أبصارنا ؟
ثم بين أن هذا التناجى سيكون يوم القيامة وأنه حق لا مرية فيه فقال :

(إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) أى إن هذا الذى حدثناك عنه أيها الرسول
من تخاصم أهل النار بعضهم لبعض ، ولعن بعضهم بعضا — حق لا مرية فيه .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّى إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧)

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ
يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أول السورة أن محمدا صلى الله عليه وسلم دعا إلى التوحيد وأثبت أنه نبي، ودعا إلى الخسر والنشر فقابلوه بالسفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب، ثم صبره على ذلك وقص عليه من قصص الأنبياء قبله ما يكون سلوة له في الصبر على الأذى، ثم أردف ذلك بذكر ثواب أهل الجنة وعذاب أهل النار - عاد هنا إلى تقرير هذه المطالب التي ذكرها أول السورة وهي تقرير التوحيد والنبوة والبعث.

الإيضاح

(قل إنما أنا منذر) أى قل أيها الرسول لمشركى مكة: إنما أنا نذير مرسل من ربي لأحذركم مخالفة أوامره حتى لا يجعل بكم من العقاب مثل ما حل بالأمم قبلكم كعاد وثمود، ولست بالساحر ولا الكذاب، ولا بالمسيطر الجبار على نحو ما جاء في قوله: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسيطرٍ» وقوله: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ». قَدْ كَرَّ

بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ .

وبعد أن ذكر وظيفة الرسول ذكر ما يبلغه للناس فقال:

(وما من إله إلا الله الواحد القهار. رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) أى إنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهو الذى قهر كل شيء وعلبه بجزته وجبروته، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما، وهو الذى يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ، ويفغر الذنوب لمن يشاء من عباده إذا تاب، جلت أو حقرت.

ثم توعدهم على مخالفتهم وترك العمل به وأمر رسوله أن يجعل لهم حقيقة وظيفته، ليعرّوا عن غيهم ويشوبوا إلى رشدهم فقال:

(قل هو نبي أعظم أتم عنه معرضون) أى قل لهم: إن ما أنبأكم به من كونى رسولا منذرا، ومن أن الله واحد لا شريك له — خبر عظيم الفائدة لكم، فهو ينقذكم مما أتم فيه من الضلال، لكنكم معرضون عنه، لا تفكرون فيه، لتناديكم فى الغفلة. وفى هذا تنبيه إلى ما هم فيه من الخطأ، عليهم يرجعون عن غيرهم. ثم ذكر من الأدلة ما يرشد إلى نبوته فقال:

(ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) أى ولولا الوحي ما كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى، يعنى فى شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه، وهو ما ذكره بعد. ثم أكد نبوته بقوله:

(إن يوحى إلى إلا أنا نذير مبين) أى ما يوحى إلى إلا للإنذار، لا لأن أكون جبارا ولا مسيطرا.

قصص آدم عليه السلام

إِذ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠)

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) .

شرح المفردات

فعموا له : أى اسجدوا له ، ما منعك : أى ما صرفك وصدك ، واليد القدرة قال :

تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْرَاءٍ مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ يَدَانِ مِنَ الْعَالِينَ : أى المستحقين للترفع عن طاعة الله المتعالين عن ذلك ، رجيم : أى مرجوم ومطرود من كل خير ، لعنتى : أى طردى ، أنظرنى : أى أهملنى ، من المنظرين : أى المهملين ، لأغوينهم : أى لأضلهم ، المخلصين : أى الذين أخلصتهم للمعبادة .

المعنى الجملى

قد سلف ذكر هذه القصة فى سورة : البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والإسراء ، والكهف ، كما ذكرت هنا ؛ والعبرة منها النهى عن الحسد والكبر ، لأن إبليس إنما وقع فى ما وقع فيه بسببهما ، والكفار إنما نازعوا محمدا صلى الله عليه وسلم بسببهما ، وكرر ذكرها ليكون زاجرا لهم عنهما ؛ والمواعظ والنصائح باب من أبواب التكرير للمبالغة فى النصيح والإرشاد .

الإيضاح

خلاصة هذه القصة — إن الله سبحانه أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام أنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، وأمرهم بالسجود له متى فرغ من

خلقه وتسويته ، إجلالا وإعظاما له ، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا بل كان من الجن فخانه طبعه ، فاستكف عن السجود له وخاصم ربه وادعى أنه خير من آدم ، لأنه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد خالف بذلك أمر ربه ، فكفر به فأبده وطرده من باب رحمة وحضرة قدسه مذموما مدحورا ، فسأل النَّظْرَةَ إلى يوم البعث ، فأنظره الخليم الذي لا يعجل على من عصاه ، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة ترد وطنى وقال : « فَبِعِزَّتِكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ » فقال تعالى : « فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنَّ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

شرح المفردات

من المتكلفين : أى المدعين معرفة ما ليس عندهم ، نبأه : أى ما أنبأ به من وعد ووعيد ، بعد حين : أى بعد الموت .

الإيضاح

(قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) أى قل يا أيها الرسول لمشركى قومك : ما أسألكم على تبليغ ما يوحى إلى أجر لا قليلا ولا كثيرا ، وما عرفتمونى أتكلف ما ليس عندى حتى أتتجل النبوة وأتقول القرآن .

أخرج ابن عدى عن أبى برزة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أَنْتُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ قُلْنَا بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ هُمُ الرَّحْمَاءُ بَيْنَهُمْ ، قَالَ :

ألا أنبئكم بأهل النار؟ قلنا بلى ، قال هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلمون .
 وفي الصحيحين أن ابن مسعود قال : « أيها الناس من علم منكم علما فليقل به ،
 ومن لم يعلم فليقل : الله تعالى أعلم ، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قُلْ
 مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) » .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى ما هذا القرآن إلا عظة للثقلين كافة ، وكل
 ذى عقل سليم ، وطبع مستقيم ، يشهد بصحته وبعده عن البطلان والفساد .
 ثم ختم السورة بتهديدهم لعلمهم برعون عن غيهم فقال :

(ولتعلمن نبأه بعد حين) أى إنكم إن أصررتن على ما أنتم عليه من الجهل
 وأيتمن إلا تقليد الآباء والأجداد فستعلمون حين الموت إن كنتم مصيبين فى إعراضكم
 أو مخطئين .

وكان الحسن البصرى يقول : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .
 جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا يعرضون عن اتباع
 الذكر وما فيه من صلاح للناس فى الدنيا والآخرة .

ما تضمنته هذه السورة من العبر والمواعظ

- (١) صلف المشركين وإعراضهم عن الحق ، مع ضرب المثل لهم بالأم الماضية
 التى حادت عن الحق فهلكت .
- (٢) إنكارهم للوحدانية .
- (٣) إنكارهم لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام .
- (٤) إنكارهم للبعث والحساب .
- (٥) قصص داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم
 من النبيين عليهم السلام .

- (٦) وصف نعيم أهل الجنة .
- (٧) وصف عذاب أهل النار ، وتلاعن بعضهم بعضاً ، وسؤالهم عن المؤمنين لم يروم في النار ؟
- (٨) قصص آدم عليه السلام .
- (٩) قسم إبليس — يُغْوِينَ بنى آدم أجمعين إلا عباد الله المخلصين .
- (١٠) أمر الله نبيه أن يقول للمشركين : ما أطلب منكم أجراً على تبليغ رسالتي ولا أنا بالذي يدعى علم شيء هو لا يعرفه .
- (١١) إن القرآن أنزل للثقلين كافة .
- (١٢) إن المشركين بعد موتهم يعلمون حقيقة أمره .